Al-AZHAR UNIVERSITY
S.A. KAMEL CENTER
FOR ISLAMIC ECONOMICS

جامعة الأزهر
مركز صالح عبد الله كامل
للاقتصاد الإسلامي

ندوة

الجوانب الاقتصادية في حياة الأنبياء عليهم السلام

يوم السبت ٢٠ صفر ١٤٢٥هـ الموافق ١٠ أبريل ٢٠٠٤م

الاقتصاد في حياة نبي الله داود عليه السلام

إعداد

الأستاذ/ عبد الجواد محمد الحمزاوى

باحث إسلامي

مدينة نصر - القاهرة - جمهورية مصر العربية
تليفون ٤٠٣٧٥١٤-٢٦١٠٣٠٨ - ٢٦١٠٣١١ - تليفاكس ٢٦١٠٣١٢
Nasr City, Cairo, Egypt, Tel.: 4037514-2610308 - 2610311, TelFax: No. 2610312
www.SAKC.gq.nu E-mail: salehka nel@yahoo.com

الاقتصاد في حياة نبي الله داود عليه السلام :

من المعلوم أن الله خلق آدم – أبا البشر – بيده، ونفخ فيه من روحه، وعلمه أسماء كل شئ؛ فالإنسان – إذن – مؤهل لهذه الكرامة، قادر على عمارة الأرض واستخراج كنوزها، وهذه القدرات تتأكد وتقوى كلما قوى اتصال الإنسان بالله، وأطاع شريعته.

فالإنسان الأول لم يستطع حل أولى مشكلاته فى الحياة إلا بتوفيق من الله. فهذا هو قابيل بعد أن قتل أخاه؛ ظل حائراً لا يهتدى.. يسائل نفسه: وماذا بعد؟! وما هو السبيل لكى أوارى سوءة أخى.. واما عجز عن الاهتداء؛ هنا بعث الله له غرابين؛ طائرين ليس من أحرار الطير ولا من أسيادها: ليعلماه، وقد تعلم وتخلص من مشكلته كما يخبرنا ربنا فى قرآننا المحفوظ ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾(١).

وربنا علمنا فى قرآننا أن الخلق – كلهم – لا يحيطون بشئ من علم الله إلا بما شاء الله، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾(٢).

وإننى أتساءل: أى الفريقين يكون أجدر وأولى بأن يحمل علم الله؛ من أطاع الله وقدسه، أم من عصى الله وحاربه؟!!

لاشك أن المؤمنين هم الأجدر، والأولى بحيازة العلم وحمله، ولكن حين يتقاعس المؤمنون ويكسلون، ويستريحون للشهوات والملذات، أو يخلدون للأرض وللراحة؛ فإن حكمة الله وقدره يوجبان أن تأخذ الأرض زينتها وزخرفها، وأن تسخر نواميسها ولو على يد غير المؤمنين!!

هذه المقدمة، وإن طالت بعض الشئ؛ ضرورية جداً فيما أرى قبل أن أتحدث عن نبى الله داود عليه السلام .

وسوف اعتمد – فى بحثى هذا – على كتاب الله أولا؛ فهو الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ ومن بعده تأتى غيره من المصادر؛ لأبين أن الخير الذى يعيشه الإنسان الآن هو من خيرات النبوة، ومن ثمار جهد عباد صالحين منهم داود عليه السلام ؛ الذى وفقه الله لاستنباط سننه وقوانينه؛ فانتفع الناس بها فى زمانه، ومازالوا ينتفعون بها إلى الآن.

---

(١) المائدة: ٣١

(٢) البقرة: ٢٥٥

فضل داود:

من المعلوم أن داود نبى، وأنه مجاهد فى سبيل الله، وأنه ملك؛ امتد سلطانه من أيلة – على خليج العقبة– إلى الفرات، لكن الذى يسترعى الانتباه ذلك الأثر الذى أورده الترمذى مرفوعاً من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ ، قال: «لما خلق الله آدم مسح ظهره؛ فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عينى كل إنسان منهم وميضاً من نور، ثم عرضهم على آدم، فقال: أىْ ربِّ.. من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك. فرأى رجلاً فأعجبه وميض ما بين عينيه، فقال: أىْ ربِّ.. من هذا؟ قال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له: داود..»(١).

قال الترمذى: حسن صحيح.

فالذى يسترعى الانتباه أن وميض ما بين عينيه أعجب أباه وأبانا آدم عليه السلام من بين جميع ذريته، وفيهم الأنبياء، والأولياء، والشهداء، فداود – إذن – له فضل عظيم، وقد اصطفاه الله حقا، لكنه مع ذلك ظل يجاهد، ويبذل قصاراه ووسعه ليكون أهلاً للفضل والإنعام، وليكون أهلاً لأن يجرى الله على يديه الخير لكل الناس. وذلك لكى يلتقى الاصطفاء الربانى بالعبقرية البشرية.. ولكى يمتزج الوحى بالجهد العقلى الأرضى البشرى.

وسوف نحاول هنا أن نستعرض نعم الله على نبيه داود، تلك التى تحدد معالم (الاقتصاد) فى عهده، والتى من خلالها حقن سيادة دولته وغناها، والتى تمكنت من تحقيق مصالح أفرادها وحاجاتهم، وبسطت سيادتها على مساحة كبيرة من الأرض؛ من أيلة على خليج العقبة إلى الفرات(٢).

إلانة الحديد:

سوف نستعرض الآن بعض ما ورد فى كتب التفسير وغيرها، لبيان موقف هذه الكتب من تلك النعمة.

---

(١) ابن كثير: قصص الأنبياء د. السيد الجميلى، المكتب الثقافى، الأزهر– القاهرة، ١٩٨٩، صـ٤١.
والوميض: كما عرفه محقق الكتاب هو: البريق.

(٢) عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء، دار القلم للتراث، مصر، بدون تاريخ، صـ٣٠٩

١- ورد فى كتاب «صفوة التفاسير» لمحمد على الصابونى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ ؛ أى جعلنا الحديد ليناً بين يديه، حتى كان كالعجين، قال قتادة: سخر الله الحديد فكان لا يحتاج أن يدخله ناراً، ولا يضربه بمطرقة، وكان بين يديه كالشمع والعجين(١).

٢- أما النسفى فيقول: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ ؛ وجعلناه له ليناً كالطين المعجون يصرفه بيده كيف يشاء من غير نار، ولا ضرب بمطرقة، وقيل لان الحديد فى يده لما أوتى من شدة القوة(٢).

٣- وأما عبد الوهب النجار فينقل عن البيضاوى يقول: قال البيضاوى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾؛ جعلنه فى يده كالشمع يصرفه كيف يشاء، من غير إحماء وطرق بآلاته أو بقوته(٣).

ثم يستطرد عبد الوهاب النجار فيقول: «اللهم إلا أن يدعى مدع أن إلانة الحديد لم تكن معروفة قبل داود، وأن الله هداه إلى هذا الأمر الذى لم يكن معروفاً قبله. وهذا ما لا سبيل إلى تحقيقه(٤).

وهذا الذى ختم به كلامه هو ما نميل إليه، وما نحاول أن نبرهن عليه، ولكننا سوف نرجئ هذا قليلاً لنرى ما أورده صاحب لسان العرب فى هذا الشأن.

ففى لسان العرب مادة أيد، يقول: وقيل: أيْدُه، قوته على إلانة الحديد بإذن الله، وتقويته إياه(٥).

من هذا العرض يتبين لنا أن إلانة الحديد، كما يراها من عرضنا آراءهم كانت:

أ- إما معجزة من الله لنبيه، تتكرر كل يوم أمام بنى إسرائيل؛ كرامة لنبى الله داود. وتصديقاً بنبوته وفضله، وإرغاماً لحاسديه وشانئيه.

ب- وإما أن ذلك بسبب قوة أودعها الله جسد داود.

---

(١) محمد على الصابونى: صفوة التفاسير، دار القرآن الكريم، بيروت: ١٤٠٢هـ/١٩٨١م، المجلد الثانى، صـ٥٤٧

(٢) أبو البركات: عبد الله بن أحمد بن محمود النسفى، دار الفكر، الجزء الثالث، صـ٣٦٩

(٣) عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء: مرجع سابق.

(٤) عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء، مرجع سابق.

(٥) ابن منظور: لسان العرب، دار المعارف بمصر، تحقيق: عبد الله على الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلى، بدون تاريخ، مادة أيد، صـ١٨٨ .

والغريب أن عبد الوهاب النجار – المولع بإيراد ما هو مذكور فى التوراة والأناجيل بشأن الأنبياء عليهم السلام– ذكر أن داود عليه السلام كان أضعف من أن يحمل لأمة الحرب التى ألبسه إياها شاؤل (الذى هو طالوت فى القرآن كما يذكر المفسرون)، ويرى –عبد الوهاب النجار– أن صنع داود عليه السلام الدروع من حلق كان بسبب ضعفه الذى ظهر حين عجز عن لبس لامة الحرب[1]. فأين إذن هذه القوة ؟!!

والذى أراه أن الرأى الذى استبعده عبد الوهاب النجار –كما سبق وأن ذكرنا– هو الأولى بالقبول للآتى:

١– أن المتبادر إلى الذهن عند قراءة هذه الآيات من سورة سبأ هو هذا المعنى؛ والتَّبَادُرُ هو أمارة الحقيقة.

٢– أن قول الله ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ هو كقول نبينا: «جعلت لى الأرض مسجداً، وجعل ترابها طهوراً»

فحديث النبى ﷺ يفهم منه أن الأرض لم تكن – كلها – مسجداً قبل النبى، ومنذ أن بُعث النبى إلى قيام الساعة؛ صار كل مسلم يستطيع أن يُصلى فى أى مكان من أرض الله بالشروط المعروفة لصحة الصلاة، إذ صارت الأرض كلها مسجداً... وكذلك أرى أن الحديد لم يكن أحد يعرف إلانته قبل داود؛ العبد الصالح، المجتهد، الحريص على ما ينفعه، والذى وفقه الله لهذا الكشف، وليحوز هذا العلم الذى تنتفع به البشرية من لدنه إلى الآن!!

٣– أن الحديد – كما هو معروف الآن – نزل من السماء؛ أنزله الله إلى الأرض من الشهب والنيازك، وليس هو من مكونات الأرض، كما صار معلوما لدى الخاصة والعامة، ومحاضرات الشيخ محمد متولى الشعراوى، ود. زغلول النجار معروفة لدى الجميع؛ فليس بمستبعد إذن أن تكون معرفة الناس للحديد –المنزل علينا من السماء– معرفة بالشئ الذى لا يُدرى كنهه ولكنه واقع محسوس، يفيدون منه كما هو بوسائلهم، دون أن يعرفوا كيف يلين ليتشكل فى أشكال مفيدة.

وليس بعيداً –كذلك– أن يكون الحديد، الذى هو هبة من الله، كان نقياً، بحيث يمكن استخدامه دون استخلاصه من التراب والشوائب التى يوجد مختلطاً بها اليوم.

٤– أن هناك فى التاريخ عصوراً، منها العصر الحجرى، ثم انتقل منها الإنسان إلى استخدام المعادن؛ فلماذا لا يكون ذلك الانتقال عن طريق عبد الله ونبيه داود؟!!

---

(١) عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء: مرجع سابق صـ٣٠٦، ٣١٠

٥- أن الأسلحة والأدوات كانت تستخدم منذ فجر التاريخ وحتى الآن -فى بعض الصور- من الأخشاب والأحجار وغير ذلك، حتى إن داود نفسه قتل جالوت -زعيم العماليق- بالمقلاع، أى بالحجارة وليس بأسلحة معدنية، كما أن السهام وحتى الآن لمن يستخدمونها، تصنع من أنواع معينة من الأشجار، ولا تحتاج لأية نصال حديدية بها لكى تصير مؤثرة فى إصابة الأهداف، وقتل الإنسان والحيوان على السواء[١].

٦- أن المفسرين أنفسهم فسروا قوله تعالى: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾[٢]، على النحو التالى:

أ- ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾، أى وأذبنا له النحاس حتى كان يجرى كأنه عين ماء متدفقة من الأرض، قال المفسرون: أجرى الله لسليمان النحاس، كما ألان لداود الحديد، آية باهرة، ومعجزة ظاهرة[٣].

ب- ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾، قال ابن عباس رضى الله عنهما، ومجاهد، وغير واحد: القطر: النحاس، وقال قتادة: وكانت باليمن؛ فكل ما يصنع الناس مما أخرج الله تعالى لسليمان عليه السلام[٤].

جـ- يذكر عبد الوهاب النجار تحت عنوان: إسالة عين القطر لسليمان عليه السلام ، ما يلى:
«وسبب ذوبانه أن الأرض التى فتحت فيها العين مصطهرة بالنار؛ فالنحاس المختلط بصخور تلك الأرض، يُصهر ويقذف به من فوهة تلك العين سائلاً. فيأتى عمال سليمان، ويأخذونه للانتفاع به فى الصناعات، ونحوها مما يحتاج إليه سليمان»[٥].

ولست أدرى من أين أتى بهذا، وهو لم يذكر مصدره، ويذكر أن التوراة خلت من هذا[٦]، وإذا كان الحديد قد لان لداود نفسه - حسبما أوردنا له آنفا - فالقطر إذن سال لسليمان!!.

---

(١) يراجع على سبيل المثال الميدانى، مجمع الأمثال، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة عيسى الحلبى، مصر، الجزء الثالث، مثل رقم ٤٢٩١، صـ٣٩٨، ٣٩٩

(٢) سبأ: آية ١٢

(٣) محمد على الصابونى: صفوة التفاسير: مرجع سابق، صـ٥٤٨

(٤) مختصر تفسير ابن كثير، مرجع سابق، المجلد الثالث، صـ١٢٣

(٥) عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء، مرجع سابق، صـ٣٣٢ .

(٦) نفس المرجع ونفس لصفحة

ثم يستطرد – الأستاذ/ عبد الوهاب النجار – فيقول:

«قد يقول بعض الناس: إن سليمان كان أول من صهر النحاس، وأن الله لم يُسل له عيناً من الأرض. والذى أقوله أنى أسلم بذلك متى علم علما صحيحاً أن القطر لم يوجد قبل سليمان، وعلى كلٍ؛ فقد منَّ الله تعالى عليه، وهداه إلى ما لم يهتد إليه أحد قبله»(١).

وأنا أقول: إن كلام الله أصدق كلام.

وفى لسان العرب:

«قوله عزوجل ﴿ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾ قال الزجاج: القطر؛ النحاس المذاب، وهو الصُّفْر، ذكر أن الصفر كان لا يذوب فذاب منذ ذلك؛ فأساله الله لسليمان..»(٢).

فكما نرى –من خلال هذا العرض– أن الله وفق سليمان لطريقة الانتفاع بالنحاس، وهى إذابته بالنار، وكذلك فإن الله وفق أباه من قبله لطريقة الانتفاع بالحديد، وهى إلانته بالنار.

فداود.. مكتشف لطريقة إلانة الحديد والانتفاع به.

وسليمان.. مكتشف لطريقة إذابة النحاس والانتفاع به.

ولاشك أن اكتشافا كهذا لهو من أعظم العوامل لقوة الدولة؛ اقتصادياً، وعسكريا.. إذ بهذا الاكتشاف يتم تطوير أدوات الحياة المدنية والعسكرية كلاهما، وتزدهر التجارة، وتزداد الثروة، ويعم الرخاء كل أرجاء مملكة داود المترامية الأطراف، وليفيد العالم كله من هذا الاكتشاف ثم من اكتشاف ابنه من بعده، ليعلم الناس جميعا أن القلب، وأن العقل المتصلين بالله هما الأقدر على اكتشاف قوانين الله، وحيازة العلم النافع، لو أخلص هؤلاء المؤمنون وبذلوا جهدهم.

صناعة الدروع:

كان داود عليه السلام عبداً يشكر الله على نعمه عليه بمزيد من العمل، والله وعد من يشكره بالزيادة. قال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾(٣).

---

(١) عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء: مرجع سابق، صـ٣٣٢

(٢) ابن منظور: لسان العرب: مرجع سابق، مادة: سيل، صـ٢١٧٢

(٣) سبأ: ١٣

نستطيع أن نجزم بأن نبى الله داود قد استخدم منة الله عليه بتعليمه إلانة الحديد فى المزيد من فعل الخيرات.. فى صناعة ما تقوى به الدولة، وما تستطيع به أن تنشر دين الله فى الأرض، وتُعبِّد الناس لرب الناس.

كافأ الله نبيه بان وفقه إلى اختراع؛ يستطيع من استخدمه أن يقى نفسه به سلاح الأعداء؛ خاصة وأن الأسلحة صارت حديدية بعد أن كانت من الحجارة أو الأخشاب، أو ما غير ذلك كنتيجة مباشرة لإلانة الحديد لداود؛ فداود لا يستطيع أن يكتم علما علمه الله له؛ لأن ذلك يغضب الله، وهو ليس من خلق النبيين.. ومن ثم علمت الدنيا إلانة الحديد، واستخدامه فى شئونها كلها..

قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾[1]، ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾[2].

وفى لسان العرب:

اللبوس: ما يلبس، اللبوس: الثياب والسلاح.

السرد: اسم جامع للدروع وسائر الحلق، وما أشبهها من عمل الحلق، وسمى سرداً لأنه يسرد؛ فيثقب طرفا كل حلقة بمسمار[3].

أما فى لسان البلاغة: سرد الدروع: إذا شك طرفى كل حلقتين وسمرهما[4].

فداود هو مخترع الدروع -كما يقول المفسرون[5]- من الحلق، وكانت قبل ذلك من الصفائح.

---

(١) الأنبياء: ٨٠

(٢) سبأ: ١١

(٣) ابن منظور: لسان العرب: مرجع سابق، صـ١٩٨٧، ١٩٨٨

(٤) جار الله؛ أبو القاسم محمد بن عمر الزمخشرى: أساس البلاغة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥، مصر، صـ٤٣٤

(٥) انظر مختصر تفسير بن كثير، صفوة التفاسير، قصص الأنبياء، لعبد الوهاب النجار، مراجع سابقة عند تفسير سورتى سبأ والأنبياء، وعرض قصة داود عليه السلام عند الأخير.

ومما نلاحظه على ذلك الرأى الذى سقناه حالاً ما يلى:

إن الدروع لو كانت معروفة -قبل داود- ولكنها من صفائح؛ فمعنى هذا أن هناك غيره أو قبله، أناساً، أو فرداً علمه الله وهداه لصنع هذه الآلة، لتحصن الناس من بأسهم، ويكون فضل داود فقط -باختراعه هذا وفقه الله إليه- هو أن جعل هذه الدروع، أو تلك الآلة أخف وفقط، وإن تكن أقل كفاءة، لأن الحلقات بينها فرج من الممكن أن تنفذ منها سهام أو أسنة رماح.

ولكن الله ذكر فى قرآنه الحكيم أن تلك اللبوس لتحصن الناس من بأسهم؛ لا لتكون أخف وأيسر!!

وأظن أن هذا الظن -ممن يرى هذا الرأى- ينبنى على اعتقادهم بأن الحديد عرف، وعرفته إلانته بالنار قبل داود عليه السلام ؛ وهذا ما لا نظنه، كما سبق وأن بيّنا.

فنحن نعتقد أن نبى الله داود هو الذى اخترع الدروع السابغة، والدروع التى هى مسرودة (مثقوبة، متتابعة الحلقات).

وكذلك؛ فإن هناك دروعاً أو أنواعاً من الترسة لم يكن فيها حديد؛ فلماذا لا تكون هى المستخدمة قبل داود؟ أو على العكس من ذلك، قد تكون هى نتيجة لاختراع داود؛ ففكرة أن يكون هناك حائل يتقى به المقاتل ضربات عدوه أخذت من داود، ثم طورها الفكر البشرى لأنواع أخرى.

ففى لسان العرب مادة درق:

درق: الدرق ضرب من الترسة، الواحدة درقة تتخذ من الجلود.

غيره، الدرقة: الجحفة؛ وهى ترس من جلود ليس فيه خشب ولا عقب، والجمع: درق، وأدراق، ودراق[1].

أياً ما كان الأمر؛ فقد استغل النبى، الملك، المكتشف، المخترع، هذا الاختراع، وذلك الاكتشاف:

- فى تقوية جيشه ليكون أقوى جيش.
- وتقوية اقتصاد دولته المترامية الأطراف؛ عن طريق بيع السلاح كما تفعل الدول الكبرى فى عصرنا الحالى؛ خاصة أن ضبط أمور الدولة، وتنفيذ شرع الله فى ذلك

(١) ابن منظور: لسان العرب: مرجع سابق، صـ١٣٦٣.

الوقت؛ كان يحتاج إلى مال كثير، وجيش من الموظفين؛ مع بطء وقلة وسائل المواصلات.

داود يأكل من عمل يده:

وردت الأحاديث الصحيحة بأن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده؛ فقد روى البخارى أن نبينا محمداً ﷺ قال: «ما أكل أحد طعاما خيراً من أن يأكل من عمل يديه، وإن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده».

وقد ورد فى مختصر تفسير ابن كثير قال، قال ابن شوذب: «كان داود عليه السلام يرفع فى كل يوم درعاً، فيبيعها بستة آلاف درهم، ألفين له ولأهله، وأربعة آلاف يطعم بها بنى إسرائيل خبز الحوارى»(١).

ونود أن نقول الآتى:

١- إن نبينا محمد ﷺ هو أولى خلق الله بكل مكرمة وفضل؛ فإذا كان إطعام الرجل لنفسه وأهل بيته من عمل يده بمعناه الذى يفهم من كلام ابن شوذب، وهو العمل المباشر باليد: حقيقة لا مجازا، فأولى الناس بذلك محمد بن عبد الله ﷺ .

٢- إن الغنائم لم تكن تحل لأمة قبلنا من الأمم، ومن ثم لم يكن لداود عليه السلام أن يأكل من الغنائم أو الفئ.

٣- إذا كان داود يبيع الدروع؛ فهل كان يبيعها للناس؟ أو للدولة؟، فى حروبها مع أعدائها، أو لتذلل قادرة على أن تدفع عدوان الطامعين.

٤- إن قضاء نبى الله داود وقته فى الحكم بين بنى إسرائيل، وفى سياسة تلك الدولة العظيمة، وفى نشر دين الله، وتلاوة المزامير؛ يأخذ جلَّ وقته؛ وإن وقتا يصرفه فى غير هذه الأعمال الكبيرة والعظيمة، لا يفى أبداً بأجرها عند الله، وعند الناس..

الذى نفهمه أن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده بإدارته هذه الصناعة التى قامت فى دولته، مترامية الأطراف؛ نتيجة لاختراعاته واكتشافاته، ولا يلزم أن يقوم هو بصنع هذه الدروع بيده، ويبيعها فى الأسواق بنفسه، خاصة وأن الله شدّد ملكه.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: مرجع سابق، المجلد الثالث، صـ١٢٢.

فالاقتصاد المتين، والثروة الكبيرة، والغنى؛ للدولة وللأفراد الذين يعيشون فى كنفها وعلى أرضها.. كل ذلك يتحقق بالمشروعات الكبيرة، وبالإدارة الواعية؛ من عبد صالح حكيم؛ كنبينا داود عليه السلام .

مُلْكٌ شديد، ومَلِكٌ قوى= تجارة مزدهرة

يقول الله تبارك وتعالى فى قرآنه الكريم، متحدثا عن داود عليه السلام ، ﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾[1]، ويقول عز من قائل: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾[2].

وإذا ذهبنا نتعرف على معنى هاتين الآيتين؛ مسترشدين بكتب التفاسير، ومعاجم اللغة وغيرها فإننا سنجد:

١- فى لسان العرب، مادة أيد، والآد جميعا: القوة[3].

٢- وفى مختصر تفسير ابن كثير نجد الآتى:

«والأيد: القوة فى العلم والعمل، قال ابن عباس: الأيد القوة(...)، وقال مجاهد: الأيد: القوة فى الطاعة(...)، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله عزّوجلّ صيام داود؛ كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، وكان يصوم يوما ويفطر يوما، ولا يفر إذا لاقى»[4].

٣- وفى قصص الأنبياء لابن كثير:

«وقوله: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ أى أعطيناه ملكا عظيما وحكماً نافذا...»[5].

ثم ذكر قصة؛ ملخصها أن رجلاً شكى آخر بأنه اغتصب منه ماشيته، ثم جاء أمر الله بقتل المدعى، ولما استفسر منه عن السبب حكى المدعىَ -الذى أمر الله بقتله- أنه قتل أبا المدعى عليه، وحاز أمواله منذ فترة طويلة، وأن المدعى قام فعلاً باسترداد أموال أبيه المقتول.

---

(١) ص: ١٧.

(٢) ص: ٢٠.

(٣) ابن منظور: لسان العرب: مرجع سابق، صـ١٨٨.

(٤) محمد على الصابونى: مختصر تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ج٣، صـ١٩٩.

(٥) ابن كثير: قصص الأنبياء، تحقيق د. السيد الجميلى، المكتب الثقافى، القاهرة عام ١٩٨٩م، صـ٤٥٧.

فلما حكم داود بذلك،، وعلمته بنو إسرائيل؛ هابته مهابة شديدة[١].

٤- وأما عبد الوهاب النجار فيقول:

«تشديد ملكه؛ ذلك أن لله تعالى قواه فى الملك. وجعله منصوراً على أعدائه؛ فقد انتصر على جميع مبغضيه ومناوئيه - قبل الملك وبعده- ومكث دهراً لا يقوم له معارض إلا غلبه، ولا يعتدى على ملكه معتد من خارج مملكته فى أواخر ملكه، وقال البيضاوى (شددنا ملكه)، قويناه بالهيبة والعظمة وكثرة الجنود...»[٢].

والملاحظ فى كل ما ذكرناه آنفاً، وما ذكر قبلاً فى هذا البحث؛ أن هناك اتجاهين بالنسبة لمعنى قوله تعالى: ﴿ ذَا الأَيْدِ ﴾:

أ- المعنى الأول: هو القوة الجسدية؛ أعطاها الله لنبيه؛ فكان -عليه السلام- شجاعاً لا يفر إذا لاقى، مستطيعاً لأداء العبادات المتتابعة، مع ضبطه الملك، وقيامه بحق الملك والرسالة معاً.

ب- المعنى الثانى: هو القوة النفسية والمعنوية، وهذا المعنى مستخلص من حديث النبى ﷺ «أحب الصلاة إلى الله صلاة داود ....الخ».

وكذلك قول مجاهد الذى ذكرناه آنفاً؛ «الأيد: القوة فى الطاعة»[٣].

والذى ألاحظه أنا؛ أن السياق القرآنى يتحدث عن داود؛ النبى الملك؛ لأن هذا هو المعلوم والمتبادر للذهن عند سماع هذه الآيات الكريمات، ومن ثم؛ فإن الله لم يقل آتيناه ملكا مكينا؛ لأن هذا معلوم؛ فهو ملك قوى، وإنما قال سبحانه ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ﴾.

والسؤال: هل إذا قلت أن ذلك الملك قوى؟ هل ينصرف قولنا هذا إلى قوته، حتى لو كان هو مالكا فعلاً لهذه القوة، أم ينصرف إلى قوته فى إدارة ملكه وبلاده؟

لاشك أن قولنا هذا إنما يُعنى به قوته فى كونه ملكا؛ وهذا لا ينافى القوة الروحية والنفسية عنده؛ لأن الله يضرب لنا مثلا بملك نبى، أو بنبى ملك أرضاً واسعة وجاهاً

---

(١) ابن كثير: قصص الأنبياء: المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٢) عبد الوهاب النجار: قصص الأنبياء، دار القلم للتراث، مصر، ب.ت، صـ ٣١٠.

(٣) انظر ما ذكر قبلا عند حديثنا عما ورد فى مختصر تفسير ابن كثير فى معنى قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْدِ﴾.

عريضاً، وكان – مع ذلك – مثالاً للحرص فى مرضاة الله، وإقامة شرع الله فى أرض الله، وعلى أن يكون الناس فى ظل حكمه يعيشون فى بحبوحة وسعادة.

يقوى هذا زعمنا ما ذكر بعد ذلك من تشديد ملكه عليه السلام، ونميل إلى تفسير البيضاوى الذى ذكرناه منذ قليل (قويناه بالهيبة والعظمة وكثرة الجنود).

معنى هذا أن مُلْكَ داود كان ملكاً مستقراً .. وكان هو –عليه السلام– ملكاً مهيباً، عظيماً، عادلاً، ضابطاً لمملكته؛ مع اتساع رقعتها، وحيازتها لمقومات الغنى، والقوة والسيادة؛ فقد كان مالكها، ومرشدها عادلاً، مكتشفاً ومخترعاً عظيماً.

ولاشك أن هذا المناخ هو خير مناخ للتجارة؛ لتعظيم الثروة، ويعم الرخاء.. فداود لاشك أنه كان يعلم أن تسعة أعشار الرزق فى التجارة، كما أخبرنا نبينا الكريم ﷺ .

وهو – عليه السلام– لم يكن ليدع هذه الفرصة تفوته.. بل إن هذا المناخ –وحده– كان كافيا لأن يحدو بالناس إلى أن ينتقلوا هنا وهناك، وإلى أن يتاجروا، وتعظم ثرواتهم وأرباحهم، ويسهمون فى تحقيق رفعة أهليهم وبلادهم؛ خاصة بعدما ما علمنا أن داود – نفسه– كان قاضياً، يحكم فى الأقضية التى تعرض عليه بنفسه، ويحكم فيها بحكم الله العادل.

ولسنا نشك لحظة فى أن القضاة –أيام داود– كانوا عدولاً؛ يحكمون بين الناس بحكم الله، يتبعون أوامر دينهم ونبيهم، ويتأسون بملكهم، ويخضعون لرقابته عليهم.

وهكذا.. عاش الناس مطمئنين.

دولتهم قوية واسعة مهيبة.. واقتصادها قوى متين، وهو يحسون بالعدل يظلهم ويلفهم، ويتمتعون بنعم الله مع إيمانهم..

الدروس المستفادة:

١– الاهتمام بالبحث العلمى، والاهتمام بأن يكون هؤلاء الباحثون أناساً يخشون الله؛ يرجون رحمته ويخافون عذابه؛ لأن هذا هو الطريق الوحيد لحيازة العلم النافع لا الضار، ولأن هذا هو أقصر طريق لعزة الدولة وغناها.

٢– اهتمام المتدينين بعلوم الدنيا، أو علوم تسخير الكون؛ لأنهم –أكثر من غيرهم– أهل لأن يظهر الله قوانينه، ونواميسه فى الكون على أيديهم؛ ومن ثم يكونون مصدر فخر لأمتهم ولدينهم، ويكونون –بحكم تدينهم– مصدر رحمة للناس جميعاً.

٣- الاهتمام بالصناعات الحربية؛ لأنها تحقق للدولة أهدافاً عدة:

أ- استمرار وقوة البحث العلمى.

ب-وقف نزيف ثروات البلد إلى الخارج للحصول على الأسلحة التى تحتاجها مادام الناس على الأرض يتقاتلون ويصطرعون مع بعضهم.

جـ- تحقيق الردع المعنوى للقوى الطامعة؛ فلا تدخل الدولة فى حروب أصلاً، لخوف أعدائها منها بسبب ما تملكه وما تنتجه من أسلحة متطورة، ومن ثم تعيش فى أمن واستقرار.

٤- المجالات التى تمتاز بها الدولة أو الأمة، لابد أن يتولى شئونها ومسئوليتها ولاة الأمر أنفسهم أو من ينوبهم، كما كان داود عليه السلام يدير مشروعات مملكته؛ لأنه لو تركت إدارة تلك المجالات لأفراد؛ فهم -غالباً- ما يغلبون مصلحتهم الفردية والعاجلة على مصلحة الجماعة والأمة، وهم يفتقدن دائماً للنظرة الشمولية التى تحيط بكل مجالات الدولة، وما يحيط بها من أخطار واقعة أو محتملة.. حتى تستمر الدولة والأمة فى تفوقها ولا تترجع للخلف.

ولا يعنى هذا لتأميم، ولكن يعنى الإشراف، وبذل المعونة والنصح، والرقابة، والتدخل الصحيح، إذا لزم الأمر.

٥- الاهتمام بتقوية هيبة الدولة والحكم فى نفوس الناس جميعاً؛ وذلك بالحكم العادل؛ وليس بالقوة والبطش؛ فهذا هو السبيل الأقوم لازدهار العمران، وتقدم التجارة.